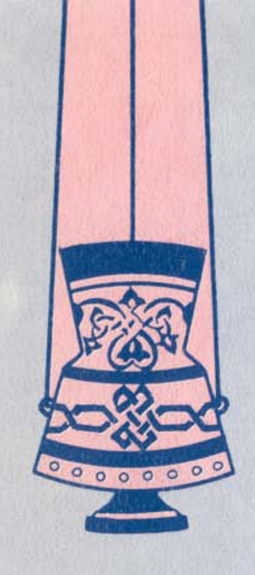



محمد الصادق عرجون

عميد كلية أصول الدين سابقًا

جامعة الأزهر - القاهرة


# نحو منهج لتفسير القرآن


المملكة العربية السعودية

وزارة المعارف

المكتبات المدرسية

الدار السعودية للنشر والتوزيع

نحو منهج لتفسير القرآن

بسم الله الرحمن الرحيم

محمد الصادق عرجون
عميد كلية أصول الدين سابقاً
جامعة الأزهر - القاهرة

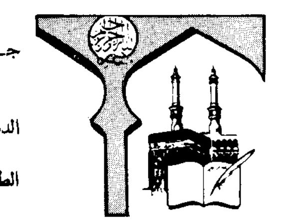



المملكة العربية السعودية
وزارة المعارف
المكتبات المدرسية

الدار السعودية للنشر والتوزيع

**الطبعة الثالثة**

**١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م**



**جـدة :** الادارة – البغدادية عمارة الجوهرة الدور الثاني شقة رقم ٧ و ١٢
تليفون ٢٤٠٤٣/٣٢٨٢١ ص.ب: ٢٠٤٣ برقياً: نشردار.
المكتبة : شارع الملك عبد العزيز تليفون ٢٣٥٢٣

**الدمـام :** الشارع العـام عمارة المنصور والعبدلي ص.ب: ٨٩٩ تليفون
٢٣٥١٥ برقياً : نشردار الدمام .

**الطائف :** حي الـلامة بالبرقاوية أمام مسجد الحلواني تليفون ٦٢٤٩٠ .

# مقـــدّمة

الحمد لله . والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وعلى آله وأصحابه .

أيها السادة : ماذا يعني هذا العنوان ؟ هل يعني أن يجري الحديث في هذا البحث نحو عرض لمنهج تفسير القرآن أو مناهجه الموجودة الآن بين أيدي المسلمين ، تدرس في مدارسهم ومعاهدهم وجامعاتهم ومحافلهم كما تحدث عنها أئمة التفسير من جهابذة المنقول والمعقول ؟ أو أنه يعني أن يجري الحديث عن منهج للتفسير جديد مبتدع مبتكر لم يأت بمثله الأوائل في تفاسيرهم التي عرفت الكثير منها المكتبة القرآنية منذ بدأ أعلام الصحابة وتلاميذهم يفسرون القرآن ؟!

أما مجرد عرض مناهج التفسير الموجودة الان بين أيدي المسلمين على اختلاف مراتبها وتفاوت درجاتها في الاعتماد على النقل أو العقل فهذا شيء لا ينبغي أن يكون هدفا لبحث يقصد إلى ابراز فكرة تضع القرآن الكريم ، أو تنبه على وجوب وضع القرآن الكريم في موضعه الأصيل من الدراسات الاسلامية أينما توجد هذه الدراسات ، باعتبار أن القرآن العظيم هو المنبع الأول لهذه الدراسات في جميع مناحيها واتجاهاتها الدينية الخالصة أو الدنيوية المنظمة للحياة وكلها في نظر الاسلام دين .

بيد أننا لا نرى مانعا من أن يجرنا الاستطراد الجاحظي إلى الحديث عن هذه المناهج الدراسية في تفسير القرآن التي وقف عندها التفكير الاسلامي المؤمن المتطلع إلى آفاق الحياة مترقبا اشراق شمس الهداية من وراء سحب التخلف عن قافلة التفكير الانساني لتبدد ظلمات الجمود العاجز ، أو العجز المتجمد عن حياة المسلمين في هذه الاعصر الفوارة بالتوثب العقلي ، لنرى ما في تلك المناهج من حوافز دفعت المسلمين في نهضتهم الفكرية دفعا أناف بهم على ذروة القيادة الانسانية فكريا واجتماعيا وسياسيا ،

ولنرى أيضا ما أقحم على تلك المناهج من معوّقات من رواسب التفكير المتخلف أو المنحرف ، ظلت تلك المعوقات متربصة بالمجتمع الاسلامي ، تتحين فرصة الوثوب عليه لترده عن سيره الجاد ، الماجد في قيادة الحياة إلى غثاء من الخرافات والأساطير ، والخوف من السبح في لجج التفكير الناهض والرضا بالقناعة الذليلة المذلة .

ولنرى ثالثا مكان تلك الحوافز الدافعة ، ومكان تلك المعوقات من حياتنا اليوم ، ونعرف مكاننا فيها ، لنستطيع أن نخلص بالحوافز القرآنية الدافعة في منهج تفسير نقيم عليه دعائم حياتنا نحن المسلمين بعيدا عن المعوقات المخذّلة التي تجد من واقعنا اليوم ما يفرضها على حياة المسلمين ليعيشوا في أجوائها الوبيئة قانعين .

أما فرض الحديث في هذا البحث عن منهج للتفسير جديد ، مبتدع ، مبتكر ، فات الأولين أن يحوموا حول ساحته فهذا غرور أجوف ، وكبرياءُ طبولية ، ودعاوى كسيحة ، لا تنهض على ساق من واقع العلم والهدى ، ونعوذ بالله من خزي الغرور ، ومن غرور الكبرياءِ الفاضحة. ونسأله سبحانه ذل العبودية لجلاله ، ونستلهمه التوفيق .

اذاً فماذا يعني عنوان هذا الكتاب ( نحو منهج لتفسير القرآن ) .

انه يعني الحديث عما ينبغي أن تكون عليه الدراسة القرآنية في مناهج دراستنا الاسلامية التي يجب أن نوجه اليها - وكدت أقول - أن نحول اليها واقعنا الدراسي في تفسير القرآن ، ليكون وجودنا العلمي وواقعنا الفكري متمشيين مع ما يقتضيه خلود القرآن العظيم باعتباره كتاب الانسانية كلها ، أنزل لهدايتها في جميع عصورها وأجيالها . ذلك الكتاب الذي ختم الله به وحيه ، وختم بشريعته شرائعه السماوية ، وختم بنبوة من أنزله عليه النبوة ، فلا نبوة بعد نبوة خاتم النبيين سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا كتاب ينزل من السماء بعد القرآن ، ولا شريعة تصلح أن تشرع للحياة ما يكفل للانسانية سعادة الدين والدنيا بعد شريعة القرآن .

ومن ثم كان واجبا علينا أن نتبين واقعنا الدراسي في تفسير القرآن العظيم ، وكان واجبا علينا أن نزن هذا الواقع بميزان الكفاية في تحقيق حاجة المسلمين في واقعهم إلى فهم القرآن فهما يقيم دعائم الحجة النيرة على مقاصد

هذا الكتاب الحكيم فيما جاءَ به من أَصول العقيدة ، والتعبد والتربية السلوكية ، والنظم الاجتماعية ، والأَوضاع الاقتصادية ، والطرائق الحُكْمية ، والتحرر الفكري ، والترابط الانساني بين الافراد والجماعات ، إلى سائر المعاني والأَفكار التي استهدفها القرآن في آياته البينات وأُسلوبه القاهر ، وواقعيته في الاستجابة إلى دعاوي الخير ودوافع الاصلاح .

وما أَظن أَن أَحدا يتخالجه مسّ من الشك في أَن المسلمين اليوم وبعد اليوم على مدى مستقبلهم القريب والبعيد في أَشد الحاجة إلى أَن يستلهموا القرآن العظيم ، دستورهم الأَكرم حوافزه الدافعة بفهمه فهما يغير من حياة المسلمين ، ويضعها في وضع يمكن للاسلام من نشر رايته على الآفاق باعتباره دينا ، ونظاما اجتماعيا متكاملا ، يحمل في صفحات دستوره كل ما تتطلبه الحياة الحرة الكريمة المستقيمة ، بل يحمل في تلك الصفحات كل ما تصبو اليه الانسانية من سعادة وتقدم ورقي .

فهنا يمكّن للمسلمين أَن يعيشوا في حاضرهم ومستقبلهم

مع الحياة الناهضة التي أصبح فيها سلطان العلم والمعرفة فوق كل سلطان ، مع الحياة التي وثب فيها العقل الانساني وثبات كادت تحيل الطفرة إلى حقيقة من حقائق الواقع الملموس .

فهل اذا وزنا الدراسة القرآنية في مناهجنا الدراسية التي تسير عليها اليوم جميعُ البلاد الاسلامية ، والتي سارت عليها منذ قرون بعد انفراط عقد النهضة الاسلامية بميزان الكفاية في واقعنا الذي يعيشه المسلمون في هذا العصر نستطيع أن نزعم أن هذه الدراسة القرآنية تقوم بحاجات المسلمين ، وتسد مطالبهم الفكرية والاجتماعية في هذا العصر والعصور المقبلة بما فيها من توثبات فكرية ومذاهب اجتماعية وكشوف علمية ، وطموح عقلي ، ومعارف تجريبية ، ونظريات كونية ، وأراء فلسفية ، وانحرافات دينية وأوضاع اقتصادية ، ونظم سياسية ؟

لن يستطيع مفكر عُني بالمكتبة القرآنية في تاريخ الفكر الاسلامي أن ينكر أن القرآن العظيم حظي بعناية من البحث والدراسة لم يحظ بمثلها كتاب ، أيّ كتاب ، إلهي أو بشري ، عرف أو يعرف في حياة المجتمع الانساني على مدى تاريخ الحياة فوق هذه الأرض .

# القرآن في مناهج دراستنا الإسلامية

* مبعث الدراسات الإسلامية
* البحث في جانب العبادات
* جانب البحوث اللغوية
* إقحام حصائل الفكر البشري
في تفسير جانب العقيدة



لقد كان القرآن الكريم مبعث جميع الدراسات الاسلامية نقلية وعقلية أدبية أو دينية ، اجتماعية أو تربوية ، لأن هذا الكتاب كان ولا يزال هو النبع الاصيل الذي فاضت وتفيض منه روافد علوم الاسلام ومعارف العربية » .

بيد أن هذه العناية التي لقيها القرآن على أيدي غطارفة الباحثين من أئمة الاسلام وأعلام الامة كانت تتناول بعض جوانبه فتتسع تارة ، فسيحة الأرجاء ، متشعبة المناحي ، مسهبة العبارات ، تتكرر بين البدء والاعادة .

وكانت في بعض جوانبه ايجازا أقرب إلى الرمز والاشارة منها إلى البحث التحليلي المتعمق .

فنحن نجد أن البحث في جانب العبادات من تفاسير القرآن قد اتسع مجاله ، ونالت فيه مسائل الفروع الفقهية عناية تجاوزت واقع الناس إلى الفروض والتخمينات .

وفي جانب البحوث اللغوية إفراداً وتركيبا وأسلوبا نجد فيضا من البحث في قواعد اللغة نحوا وصرفا وتفريعا وإيرادا للشواهد الصحيحة والمتحولة ، ونجد جدلا لفظيا عريض المدى صرف الباحثين عن المقصد الأعلى للقرآن الحكيم وهو الهداية في بيان القرآن وأسلوبه ومعانيه بما أغرقت فيه من جدل عقيم لا يحلى ولا يمر .

وفي العقيدة ، وهي أصل الأصول التي نزل القرآن لتثبيت دعائمها اتخذ جمهور المفسرين الذين لهم عناية بهذا الجانب الفكري من مقاصد القرآن ، حصائل الفكر البشري قديمها وحديثها في أعصرهم ميدانا لبحوثهم وألقوا بها في خضم الدراسة القرآنية على أنها تفسير لهذا الجانب من هذا الكتاب الكريم ، وقد كان لاقحام هذه الحصائل الفكرية على حمى القرآن أثرها المعوق على تبيين الهداية الالهية بطريقة القرآن الخاصة في البرهنة على قضايا العقيدة ، ودحض شبه المبطلين .

# الفلسفة الإسلامية

- مِنْ قُرُونِ الفُرْقَةِ
- تَيَّارُ التَّجْدِيدِ
- إخضاع القُرْآن للنظريات المهزوزة

وللقرآن الحكيم طريقه الذي امتاز به في أسلوب البرهنة والاستدلال ، وهو يورد ذلك في تنوع يتلاءم مع كل مقام وكل بيئة وكل عقل .

وقد أدى اغراق الهداية القرآنية في خضم الحصائل الفكرية إلى مشكلة فكرية تاريخية يصعب الخلاص منها ، تلك هي تحميل الاسلام – ومنبعُه الوحيد في العلوم والمعارف هو القرآن العظيم – عبءَ حصائل الفكر البشري ، ذي اللون الغريب كل الغرابة عن مفاهيم الهداية الاسلامية ، وجعلَها من عمل الاسلام ومعارفه وأفكاره ، وقد هلل لها وتعبد لأساطينها الذين أغرموا بها .

ذلك هو ما يعرف في دراستنا وتاريخنا الفكري بالفلسفة الاسلامية وهي فلسفة أَجنبية عن الاسلام في أَصل وجودها ،

ولكنها ( تـأسلمت ) ـ اذا صح هذا التعبير ـ على أيدي طائفة من المفكرين الأذكياء لم يحل ذكاؤهم دون استسلامهم في الكثير من التفكير وقضايا الفلسفة الالهية لمعلمهم الاول ( أرسطو ) كما سموه .

ولقد جالوا معه في ميدان البحث الفلسفي جولات لو أنهم صرفوها صادقين مستقلين إلى منبع الهداية الالهية لكان لنا معشر المسلمين اليوم فلسفة اسلامية حقيقية ، تنبع من أصل أصولنا ومنبع هدايتنا القرآن العظيم .

وهكذا صارت الدراسة القرآنية في مراحل التاريخ الاسلامي تقليدا لما ورثناه من قرون الفُرقة الاسلامية ، ولم نحاول في دراستنا أن نستجيب لدواعي العلم أداء لحق العقل المتحرر من قيود الاستعباد الفكري والتقليد المستسلم ، واستعادةً للعزة الاسلامية التي أقام القرآن الكريم صرح بناء الامة على دعائمها .

والذين حاولوا منا أن يتحرروا لم يكن لهم من سلاح العلم الصحيح والعقل الرجيح والاعتصام بأُصول الاسلام ما يعصمهم عن الوقوع في مزالق التقليد الاهوج لقوم

هم أبعد ما يكونون عن الاسلام ومفاهيم هدايته ، وهؤلاء بتعبير أصح تحللوا ولم يتحرروا جريا وراء بريق الشهرة الزائفة وغرور التجديد ، وحمّلوا القرآن في تفسيره ما لا تحتمله آياته من أقوال ومذاهب ونظريات هي أقرب إلى التعسف والتحريف منها إلى التفسير والتحرير ، فخصصوا العام ، وعمموا الخاص ، وأطلقوا المقيد ، وقيدوا المطلق ، ونسخوا المحكم ، وأحالوا الظواهر ، وجعلوا ما للاخرة منه للدنيا وما للدنيا للآخرة .

والذي يثير الدهش والأسف أن بعضا من الأفاضل الأكابر الذين أجادوا بيان هداية القرآن في بعض بحوثهم الدراسية للقرآن الكريم جرفهم تيار التجديد فانزلقوا في منحدر التأويل المتعسف . وحاول بعضهم اخضاع آيات القرآن لنظريات زعم أصحابها أنه قد استقام لها الاستدلال وأصبحت علما مقررا لا يحتمل الشك والارتياب ، مع أنها نظريات لا تزال يعوزها الاستقرار العلمي ، وتفتقد البرهان الذي يرفعها إلى مظنونات الحقائق ، بله اليقين .

ولو أن هؤلاء الاجلاء صحبهم التوفيق فقصروا

دراساتهم القرآنية على بيان هداية الكتاب الكريم ، بعيدا عن تعسف التأويل لمجرد الرغبة في التجديد وامامة المجددين ، لكان للمسلمين من وراء هذه الدراسات القرآنية دعائم يقوم عليها تفسير للقرآن يسد بعض الفراغ الذي يشعر به العالم الاسلامي في مجالات الأهداف الاجتماعية التي يتطلعون اليها من آفاق ذلك الكتاب الحكيم .

وشاهد هذا ما أشرنا اليه في كتابنا ( القرآن العظيم ـ هدايته واعجازه في أقوال المفسرين ) ـ أن أحد هؤلاء الاجلاء يقول في تفسير قوله تعالى من سورة لقمان ( خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم ) أن الكتاب الكريم ـ القرآن طبعا ـ قرر أن الأرض كانت جزءً من السموات وانفصلت عنها ... وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم ، وقد قال العلماءُ أن حادثا كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها ، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت ، وصارت قطعا ، كلٌ قطعة منها سارت سيارا من السيارات طافت حول الشمس ، وبقيت في قبض جذبها ، والارض واحد من هذه السيارات فهي بنت الشمس ، والشمس

هي المركز لكل هذه السيارات . ا ه .

أما أن العلماء قالوا ذلك فلا حرج علينا ـ نحن أبناء القرآن ـ أن ننظر فيما قالوا ، بل يجب علينا أن ننظر فيماقالوا ـ لنعلم علمه ونعرف بقدر ما نستطيع مصادر ما قالوا وموارده .

وأما أن الكتاب الكريم ـ القرآن طبعا ـ قرر ، هكذا بصيغة الجزم القاطع ، والايمان المتيقِن ، قرر ما قال أولئك العلماءُ ، فهذا ما كان ينبغي لهذا الامام في عصره أن يتحرز من التصريح الجازم به ، لأنه يجعل من القرآن الكريم كتاب نظريات تجريبية ، تخضع لتطورات الكشوف العلمية التي تُبطل اليوم ما كان بالامس من الحقائق المقررة ، وتصحح اليوم ما كان بالأمس من الأساطير الباطلة ، ولا شك أن هذا أخطر ما يعرّض القرآن الكريم للهزات الفكرية التي تتراقص بها التجارب الانسانية في ميادين الظواهر الكونية .

ومن أعجب العجب أن هذا العالم الجليل يقرر صراحة لا تحتمل التأويل أنه لا ينبغي تعريض القرآن لآثار

الهزات الفلسفية ، وذلك حيث يقول تحت عنوان ( غرور المسلمين بالعقل والفلسفة ) وجد خلاف بين المسلمين في العقائد والاحكام الفقهية ، ووجد مرض آخر ، هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع اليها ، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يَقِر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب ، فان للفلاسفة أوهاما لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى ، والنظريات التي لم تستقر لا يصح أن يرد اليها كتاب الله .

هذا نص كلام الشيخ الجليل .

فهل انفصال الارض من السموات أو من الشمس من النظريات العلمية التي قر قرارها إلى درجة القطع اليقيني ؟ فلا يكون في تأويل القرآن ورجعه اليها خطر على هذا الكتاب الالهي العظيم ؟ أو أن الضعف البشري في لزومه لجميع أفراد البشر مهما علا قدرهم آية من آيات الله تعالى على تفرد الكمال المطلق .

وقد يتساءل متسائل أين قرر القرآن أن الأرض كانت جزءاً من السموات ثم انفصلت عنها اثر حادث كوني ؟

في القرآن الحكيم اية واحدة هي التي يتشبث بها أصحاب هذه النظرية الانفصالية ، وهي قوله تعالى ( أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون ) .

وهذه الاية قرأها المؤمنون منذ نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهمها من فهمها قبل ظهور نظرية الانفصال الأرضي ، ومن لم يفهمها لم يسكت على جهله بها ، بل سأل أهل الذكر ففسروها بما يتلاءم مع هداية القرآن ، روى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلا سأله عن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما؟ فقال له ابن عمر اذهب إلى ابن عباس فاسأله ، ثم تعال فأخبرني ، فذهب الرجل ، فسأل ابن عباس فقال له ابن عباس رضي الله عنهما ، كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت ، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات ، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره ، فقال ابن عمر : قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن ، فالان علمت أنه أوتي علما .

فما الذي يدعو إلى عدم صحة هذا التفسير ؟ وما

الذي يدعو إلى استبعاد احتمال الاية له ان لم يكن هو المعنى القريب في أسلوب الهداية القرانية ؟ فلو أن الشيخ رحمه الله قرر أن أسلوب الاية صالح لفهم ما يقرره العلم الصحيح مع صلاحيته لفهم ما قرره أئمة الاسلام في معنى الاية لكان ذلك أكثر ملايمة لمقامه العلمي ، ولكان أنسب بما قرره من عدم تعريض القرآن للهزات العلمية المستحدثة

فالقرآن لم يقرر أبدا النظرية الانفصالية بين الشمس والأرض ، ولكنه وهو في أفقه الأعلى من براعة البيان المعجز تحدث عن السموات والأرض في صدد بيان جلال القدرة الالهية حديثا صبه في اطار لا يناقض علما ثبت أو يثبت ثبوتا لا يخالجه ريب ، ولا تتوارد عليه الشبه والشكوك ، على أن المتتبع لحديث القرآن عن السموات والأرض يراه يذكر الأرض في مقابلة السموات بصورة قد تدل بفحواها - ان لم يكن بظاهرها - على استقلال الأرض في خلقها كوكبا تعيش عليه الحياة الخاصة بمن عليه وما عليه وما فيه من الموجودات ، بل إن القرآن ينفسح لأكثر من هذه في دلالة ظاهرة على استقلال خلق الأرض عن السموات ، فهو يقول في سورة ( فصلت )

( قل أئنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواءً للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم ) .

فهذه الاية الكريمة ظاهرة الدلالة على أن الأرض خلقت خلقا مستقلا عن السموات ، وجعلت فيها الجبال الرواسي لحفظها أن تميد فتختل الحياة فوقها ، وأن الله بارك فيها بما شاء من أنواع البركة في اعدادها وتهيئتها للحياة وأنه قدر فيها أقواتها ، وأنه سبحانه وتعالى حدد لذلك الخلق مع ما يتبعه مما ذَكَر ربنا تبارك وتعالى أوقاتا خاصة معينة عنده مقربة لعقولنا بما نعرف ونألف .

ثم ذكر ربنا تبارك وتعالى طورا من خلق السموات ذكرا مستقلا بحرف يفيد عند أهل اللغة الوجود المتراخي لتقريب مراتب الخلق لعقول الخلق التي لا تدرك الا ما عرفت وما ألفت وما يصح قياسه على المعروف لها المألوف

- وشأن الله أعظم من مدركات العقول - وأخبرنا أن السموات كانت دخانا فخوطبت - كما شاء رب العالمين في خطابه لأصناف خلقه - هي والأرض معا ثم ذكر أنه أحكم خلق السموات وأكملها سبعا من العنصر الذي أخبر أنها كانت عليه وهو الدخان وأنه خص السماء الدنيا التي هي أقرب السموات في ترتيبها الذي اقتضته ارادته ومشيئته بزينة المصابيح من اللوامع ، وجعل فيها شهبا لحفظها ثم أثنى على نفسه بما هو أنسب صفاته وأسمائه بهذا المقام فقال جل شأنه ( ذلك تقدير العزيز العليم ) وكلمة ( تقدير ) في هذا المقام لا توجد كلمة تؤدي المقصود منها غيرها ، والاسمان الكريمان ( العزيز والعليم ) هما منبع الفيض بما اشتملت عليه الايات من معان منزلة من خزائن القهر والجود .

على أنه لا ذكر في القرآن الكريم للشمس باعتبارها السماء التي انفصلت عنها الأرض - كما يقول العلم في نظريته - بل المذكور السموات بعنوانها ومفهومها الشرعي الذي لا يفهم منه ارادة الشمس الا بضرب متعسف من التأويل ، والشمس في القرآن الكريم تذكر مقابلة للقمر

وقرينة له باعتبارهما كوكبين مغايرين للسموات بمفهومها الشرعي .

فنظرية انفصال الأرض عن الشمس لم يقررها القرآن الحكيم ، فلا تصلح تفسيرا لآياته على أنه هو المعنى الذي يتحتم في فهم تعبير البيان القرآني .



# الهداية القرآنية

- في تفسير رتق السماوات والأرض وفتقهما
- الشيخ محمد عبده وتفسير سورة الفيل
- الشيخ محمد عبده وتفسيره في خلق الملائكة
- المتحمسون لنظريات العلم المستحدثة والتحريف



ولو أَن الناظرين في هداية القرآن أَمعنوا النظر في مقاصد هذه الهداية لوجدوا أَن تفسير رتق السموات والأَرض وفتقهما بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وتلقاه الائمة بالرضا والقبول ، أَقرب إلى تحقيق تلك المقاصد ، لانه المعنى الذي يفهمه كل من يتجه اليه بنظر الحس والعقل من عامة الناس وخاصتهم .

وتفسير آية رتق السموات والأَرض بنظرية الانفصال الشمسي التي قال بها العلم المستحدث بعيد عن مقاصد الهداية القرآنية لا يفهمه من اسلوب البيان القرآني الا من قصده متأَولا ، ولا يفهمه علميا الا أَخص الخاصة من العلماء الكونيين ، والقرآن لم ينزل بهدايته لهؤلاء العلمانيين وحدهم ، وانما نزل لهداية كافة البشرية على مستويات عقولهم وثقافتهم .

ولقد كان الشيخ الامام محمد عبده وهو الشعلة المضيئة في انارة الطريق لتجديد تفسير القرآن والعودة به إلى بيان الهداية القرآنية حذرا في لباقة عندما عرض لمثل هذا التأويل العلمي في بعض آيات القرآن فنراه في تفسير سورة ( الفيل ) يجعل معنى آياتها في عبارة موجزة تصور ما في السورة من هداية وعظة ثم يقول وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الايات ، ولا نزيد عليه أدنى تفصيل ، وهو كاف في الاعتبار والعظة ، وليته فعل وسكت عند هذا ، ولكنه تابع الكلام ، وذكر ما قال انه تواتر من الواقعة إلى أن قال وفي اليوم الثاني أي لخروج أهل مكة فزعين إلى شعف الجبال بعد ما بلغهم خبر جيش الفيل ، فشا في جند الحبش داء الجدري والحصبة وذكر قولا عن عكرمة أنه هو أول جدري ظهر ببلاد العرب ، ثم ذكر قول يعقوب ابن عتبة أن أول ما رؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام .

ثم عقب على ذلك بقوله هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به ، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أَن ذلك الجدري ، أَو تلك الحصبة نشأَت من حجارة

يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح .

فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض ... وأن كثيرا من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جند الله في اهلاك من يريد اهلاكه من البشر ، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الان ( بالمكروب ) لا يخرج عنها اه ملخصا .

وحديث الجدري والحصبة في هذا المقام حديث مقحم متهافت ما كان ينبغي أن يعول عليه مثل الشيخ - على جلالة قدره - في تفسيره القرآن الحكيم في سورة يبدؤها الله بصيغة التعجيب والتعظيم لصنعه بما أنزله بهؤلاء الطغاة الجبابرة تقدمة لمبعث نبيه صلى الله عليه وسلم .

وقد عرض لبيان تهافت هذا الرأي قديما ابن الأثير في تاريخه الكامل فقال وقال كثير من أهل السير أن الحصبة والجدري أول ما رؤيا في بلاد العرب بعد الفيل ، وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه ... فان هذه الأمراض ... قبل الفيل مذ خلق الله العالم .

وقول الشيخ الامام بعد أن ذكر حديث الجدري والحصبة هذا ما اتفقت عليه الروايات غريب في باب العلم ، وعجب في تفسير القرآن ، لان الروايات لم تتفق على هذا ، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ما تكون بالطير المسمى بالخطاف ، وهو طائر من طيور الليل ، وبعض الروايات ذكر أنها تشبّه بالوطاويط ، وبعضها ذكر أنها أشبه باليعاسيب . وهي ذكور النحل وأمراؤها ، وقد أقبلت من جهة البحر في جماعات اثر جماعات تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة أو حصى كحصى الخذف ، فألقتها على الجيش الظالم فتساقط هلاكا وفناء ، فأي محال يترتب على تجويز ذلك ؟ وبه تبقى السورة على ظاهرها ، فيبقى الحادث على وضعه الاعجازي ارهاصا للنبوة الخاتمة وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد ذكر بعض الروايات وهذه أسانيد صحيحة .

أوليس هذا أقربَ إلى الاسلوب العربي من حديث الجدري والحصبة والذباب والبعوض والمكروب ؟ وهل في عرف اللغة العربية واستعمالاتها اطلاق لفظ ( الطير ) على

الحيوان المسمى بالمكروب فهل كان القوم المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبي الذي افتتحت به السورة يعلمون شيئا عن هذا الحيوان المسمى ( بالمكروب ) .

وقول الشيخ وقد بينت السورة الكريمة أن ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة ، اغراق في الغربة عن العلم ، وايغال في العجب أن يكون ذلك في تفسير القرآن ، وأين تعرضت السورة الكريمة لذكر الجدري والحصبة ، بله بينت أنهما من حجارة يابسة ، والسورة بين دفتي المصحف كاملة ، كما أنزلت يتلوها الناس ، ويقرؤها القَرَأة من حفظة القرآن وليس فيها اشارة من بعيد أو قريب إلى الجدري والحصبة .

وقد فرع الشيخ على ما فرضه واقعه من حديث الجدري والحصبة انه يجوز لمن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم الأمراض ، وأن هذا الحيوان الـذي يسمى ( بالمكروب ) من هذه الطير .

أليس هذا تحميلا لآيات القرآن فوق طاقة أساليب

العربية ، وفوق طاقة افهام من نزل القرآن لتعجيبهم من شأن هذه الحادثة المبدعة ارهاصا لمقدم بعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم .

لقد كان حديث الجدري والحصبة على تهافته أيسر أمرا من حديث ( المكروب ) وانه من الطير الذي أرسله الله على جيش الفيل ، وهو ضرب من التعسف في التأويل المتملق لنظريات العلم المستحدثة وهو مذهب لكثير من المجددين في تفسير القرآن ، والمتسورين على تبيين مفاهيم الاسلام الذين يرفضون قبول الخوارق المادية ، سواءً أكانت ارهاصا قبل النبوة أو معجزات بعد الرسالة ، فكان من الحق على الشيخ الامام في مكانه من الفضل والعلم ألا يفتح لهؤلاء باب التأويل الذي يدخلون منه إلى التحريف .

والأستاذ الامام الشيخ محمد عبده يسلك هذه الطريقة التي تبدأ ببيان الهداية القرانية في الآيات بيانا لا يستطرد ولا يتعسف في التأويل ، ثم يبدو له أن يتولج إلى مداخل التأويل الذي يبعده عن اختياره لمذهب السلف ، ولكنه لا يبقى به مع الخلف في الوصول إلى نتائج مذهبهم .

ويستبين ذلك بصورة واضحة في تفسيره – الذي نلخصه في تفسير تلميذه صاحب المنار ، وقد أسنده اليه صراحة – لآيات قصة آدم . وجعله خليفة ، وحوار الملائكة في هذه القصة ، وأمرهم بالسجود لآدم وإباء ابليس عن هذا الأمر الالهي استكبارا وعتوا .

فبعد أن ذكر – الشيخ مذهب السلف والخلف في المتشابهات ، وذكر أن آيات هذه القصة منها ما لا يمكن حملها على ظاهرها ، وصرح بأنه على مذهب السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بصفات الله تعالى وعالم الغيب ، ذكر رأي السلف والخلف في حقيقة الملائكة بعبارة مبسوطة وافية ... إلى أن قال الملائكة خلق غيبي لا نعرف حقيقته ، وانما نؤمن بإخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه ، والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف ، لكل صنف وظيفة وعمل ، وأن الهام الخير والوسوسة بالشر قد اسندا إلى هذه العوالم الغيبية ، وخواطر الخير التي تسمى الهاما ، وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محله الروح ، فالملائكة والشياطين اذن أرواح تتصل بأرواح الناس .

وهذا – لو وقف عنده الشيخ – كان كافيا في بيان الهداية القرآنية التي تُفَسِّر الايات في هذه القصة في ظلها لكن الشيخ تابع السير ، فقال : وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر في فهم معنى الملائكة ، وهو أن مجموع ما ورد في الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء ونبات وخلقة حيوان وحفظ انسان وغير ذلك فيه ايماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو ان هذا النمو في النبات لم يكن الا بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والانسان ، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الالهية في ايجاده فانما قوامه بروح الهي ، سمي في لسان الشرع ملكا ، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمي هذه المعاني القوى الطبيعية اذا كان لا يعرف من عالم الامكان الا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة ...

إلى أن يقول الشيخ : فاذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الاشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية

التي بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به ، خلق الانسان وأعطاه قوة يكون بها مستعدا للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض ، وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير وجعله بهذا الاستعداد الذي لا حد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه ، لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بابليس ، وهي القوى التي لزها الله بهذا العالم لزا ، وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو بالكامل إلى النقص ، وتعارض في مد الوجود لترده إلى العدم ... ثم قال الشيخ ولو أن نفسا مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك .

ان هذا الطريق في تفسير آيات القرآن الحكيم بتسليط التأويل على كل ما يتعاصى فهمه على بعض العقول واحالةِ أو استبعادِ ظاهر المعنى إلى ضرب من التمثيل ، هو الذي يخشى أن ينفذ منه ( المتقرمطون )

إلى تحريف كلم الله عن مواضعها ابتغاء فتنة الجماهير من عامة المؤمنين .

وهل تسور المتحمسون لنظريات العلم المستحدثة في هذا العصر على آيات القرآن يحرفونها عن مقاصد الهداية إلى تحميلها مقاصد تخضعها لتطبيق تلك النظريات التي لا تزال في مهب رياح البحث الا من طريق التعسف في التأويل .

ان هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى بلسان عربي مبين ، هدى للناس ورحمة . ولم ينزله بالاشارات والرموز والايحاءات بيد أن القرآن نفسه أخبر أن منه آيات محكمات ، هي جماعة ، أحكمن بالبيان والتفصيل لما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام ، ووعد ووعيد ، وثواب وعقاب ، وأمر وزجر ، وخبر ومثل ، وعظة وعبرة .

وان منه آيات متشابهات وهي كما يقول الطبري ناقلا عن الصحابة والتابعين كل ما لا حاجة إلى العباد بمعرفته واستأثر الله بعلمه ووقته ، وانما أنزل امتحانا لقوة ايمان المؤمنين وعبودية العابدين .

وآيات قصة الملائكة مع آدم أبي البشر وجعلِه خليفة في الأرض لا تخرج من قسمي القرآن العظيم ، فهي اما من المحكم الذي علمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلمه علماء الامة وأخبروا به وبينوه للناس ، واما من التشابه الذي علموا ان الله استأثر بعلمه فأمسكوا عن الخوض فيه لئلا يلبسوا على الناس دينهم ويوقعوهم في مزالق الفتن المضلة .

ومهما يكن من أمر فان الثروة الضخمة التي أخرجها أئمة الاسلام قديما وحديثا في تفسير القرآن تدلنا على مقدار العناية التي أحيط بها هذا الكتاب الحكيم مما لم يكن مقدورا على أعظم منه في عصوره وبيئاته ، ولو أنه اتيح لعلماء المسلمين اليوم أن يجمعوا في مكتبة قرآنية جميع ما اخرج من التفاسير لينتقى منها تفسيرٌ واحدٌ يقتصر فيه على بيان هداية القرآن بيانا شاملا يجمع ضروبها لكان للامة الاسلامية منها تفسيرٌ جامع لما تتطلبه البشرية في حاضرها ، بل أكاد أقول في مستقبلها ، ولكن هذا ليس في حيز الامكان عمليا لأسباب لا تخفى.

فهل يسلمنا ذلك إلى اليأس فنقف ننغض رؤوسنا

حيارى لا نتقدم إلى هذا الكتاب الأكرم نستهديه ونستلهمه مستعينين بما خلف لنا سلفنا من أصول ودعائم نهض وينهض على ركائزها تفسير القرآن الحكيم بما يحقق للامة الاسلامية خلافتها في الأرض وحملَها راية الريادة في تطلعات الانسانية إلى آفاق العزة ، تحقيقا لقوله تعالى ( كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ) وقوله تعالى ( وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ) .

# في سبيل دراسة متحررة لا متحلّلة

* الآيات الكونيّة في القرآن .
* نظر تفصيليّ في عموم الجزئيّات
* الراسخون في العلم .
* الرازي ومحاولاته في فهم الآيات الكونية .

ولقد كان من بشائر الامل المشرق هذا الاحساس الذي ينتاب الدارسين القرآنيين في سبيل دراسة اسلامية متحررة لا متحللة ، دراسةٍ تصل حاضرنا الناهض بماضينا الاول المجيد ، دراسةٍ تعتمد على أن المنبع الفياض ـ بالأفكار والعلوم والمعارف والحقائق القوية الهادية إلى الله تعالى المحققة لسعادة البشرية حيثما كانت في ظل راية الاسلام ـ هو القرآن الكريم .

ومن هنا كان على الذين حَمَلوا ويَحْملون عبءَ الدراسات القرآنية أن يجعلوا من القرآن الكريم ظُلَّة تنطق بالمعرفة والعلوم والأفكار وأن يتخذوا منه هاديا ومنبعا لقيام بحوث تنهض بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وتمدهم بمطالب الحياة حتى لا تكون بهم حاجة

إلى غيرهم الا عن طريق تبادل الأنداد والزملاء للأفكار والعلوم والمعارف .

وقد عرفنا الجوانب التي اتسع فيها الباحثون والمفسرون حتى تزيدوا فيها إلى أكثر مما تدعو إليه حاجة الناس أولا - وأشرنا إلى الجوانب التي ظلت مغلقة لم تفتح أبوابها الا بمقدار ما يدخل الهواء للتنفس وحفظ الحياة ، وهذا الجانب يتمثل أولا في الآيات الكونية التي ساقها القرآن الكريم لتوقظ العقل الانساني بعد أن بلغ رشده في التفكير ، ولتقوده إلى آفاق الهداية الالهية عن طريق معرفة أسرار الكون ليعرف عن طريقها عظمة الله وجلال كبريائه ، ويهتدى بها إلى ما وضع الله فيها من منافع العباد ومصالح الخلق لتحقيق سعادتهم في هذه الحياة . ويتمثل ثانيا في الآيات التي تتحدث عن بعض جوانب المجتمع البشري وما يحقق العدالة فيما يقوم بين أفراده وجماعاته وأممه وشعوبه من تفاعلات وتناقضات في الوسائل والأهداف. مما ينشأ عنه ألوان من التصادم الفكري أو المادي ويقتضي نظاما يرد الشاردين عن حظيرة العدل إلى ساحته ، ويثبت دعائم الحق في قواعدها . أما الآيات الكونية فالقرآن

الحكيم قد ربطها بالعقل وجعله وسيلة فهمها والوقوف على مراميها لأن الله تعالى أمد الانسان بسلطان العقل ، وسخر له ما في السموات وما في الأرض ، ودعاه إلى كشف أسرار الوجود ببذل أقصى الطاقة البشرية التي أودعها الله فيه. ليعرف جلال الله تعالى في عظمة ملكه ، وعظيم قدرته في اتقان خلقه ، وحكمته في بديع صنعه ، ورحمته في لطيف تدبيره ، فالقرآن حين يقول ( هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شيء عليم ) ، وحين يقول ( وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ) وحين يقول ( ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ) إنما يقصد إلى تنبيه العقل الانساني ليعرف مهمته في الحياة ، وفي قوله تعالى ( خلق لكم ) ( وسخر لكم ) نص لا يحتمل التأويل بأن الله تعالى ينبه العقل البشري في كافة أفراده بأن خلق هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية ، وتسخيرَ

ما فيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم انما كان لأجل الانسان الذي كرمه الله تعالى بخصيصة العقل وفضله به على كثير من خلقه لينتفع به ، ولا شك ان الانتفاع بالشيء لا يتم ولا يتحقق الا بعد معرفة منافعه وفوائده وهذا يقتضي البحث عن منفعة وفائدة كل مخلوق من مخلوقات الله في الحياة التي امتن الله بخلقها وتسخيرها للانسان ، ومعرفةُ فائدة المخلوقات ومنافعها لا تتحقق الا بعد معرفة حقائقها تفصيلا ، لأن معرفة الحقيقة يرشد إلى مواطن الانتفاع وهذه مهمة تستنفد أعمار الاحياء في هذه الحياة ، فالبحث عن حقائق المخلوقات سماوية أو أرضية ، هو في نظر القرآن ، مهمة الانسان ما دام على ظهر هذه الأرض ، لأنه وسيلته لاستخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التي يحيا بها حياة طيبة ، يغمره فيها الايمان بجلال الخلاق العظيم ، يقول الامام الرازي في تفسير قوله تعالى « هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا » وأما قوله ( لكم ) فهو يدل على أن المذكور بعد قوله « خلق » لاجل انتفاعنا في الدين والدنيا أما في الدنيا فليصلح أبداننا ، ولنتقوى به على

الطاعات ، وأما في الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها وجمع بقوله « ما في الأرض جميعا » جميع المنافع ، فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال ، ومنها ما يتصل بضروب الحرف والأمور التي استنبطها العقلاءُ ، وبين بأن لى‌تعا كل ذلك انما خلقه لكي ننتفع به.

ومما يجري مجرى ايقاظ العقل الانساني وتنبيهه إلى تعمق الوجود وكشف حقائقه ، وتعرف آيات الله في عناصر ذلك الوجود المفعم في كل ذرة من ذراته بالأسرار قول الله تعالى ( ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم ان في ذلك لآيات للعالمين ) ولباب هذه الايات وخلاصة حكمتها تجمع – بعد نثره في مفرداتها وجملها – وكان في فاصلتها – لان تخصيص « العالِمين » بالذكر في هذه الفاصلة توجيه لذوي العقول المستضيئة بنور العلم إلى البحث عن أسرار آيات الله الكونية في آفاق السموات وأرجاء الأرض لكشفها ورفع الحجب والأغطية عن حقائقها لتقع من الحياة موقعها وينتفع بها الأحياء لأنها مخلوقة لأجلهم حتى تظهر خصيصة العلم في العلماءِ ويمتازوا بها عن سائر العقلاء

لانفرادهم بادراك حقائق آيات الله الكونية التي نصبها الله حجة على وجوده واحاطة سلطان قدرته وعلمه ، وهذا ما قال تعالى ( وتلك الأَمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون ) . تسجيلا لامتياز العلماء القائمين بحجة الله على الخلق في الأَرض ، وبيانا لفوقهم على من باينهم في المعارف من سائر العقلاء لادراكهم ما وراءَ حجب الحس المادي فهما لمرامي اشارات الله تعالى في دلائله الافاقية والأَنْفُسية وقد جاءَ التصريح ببعض مظاهر هذا الامتياز الذي اختص به العلماء بالله لادراكهم أسرار آياته الكونية في سورة ( فاطر ) حيث أثنى عليهم هذا الثناءَ الذي تنقطع له أَعناق الربانيين فوصفهم باختصاصهم بخشيته فقال ( انما يخشى الله من عباده العلماء ) وسياق هذه المدحة العظيمة بيّن جلي في أن المراد من العلماء المميزين بهذا المقام هم العلماء بالله الذين عرفوه بمعرفة آيته في خلقه معرفة تقوم على ادراك أسرار ظواهر ما خلق من أَشياءَ ، والمتأمل في موقع هذه المدحة مما سبقها يفهم من هم العلماء في هذا المقام ، يقول عز شأْنه ( ألم تر أَن الله أَنزل من السماء ماءً فأَخرجنا به ثمرات مختلفاً

ألوانها ـ ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماءُ ان الله عزيز غفور )

فالذين علموا بعد البحث حكمة الله في انزال الماء من السماءِ وكيفية تجمع هذا الماء في أماكن تجمعه والذين علموا بديع صنيع الله تعالى في إحداث ما يحدث من تفاعلات العناصر الحية في باطن الأَرض بعد انزال الماء عليها حتى تتكون فيها أَجنة الثمرات المختلفة في طعومها وأَلوانها وأَشكالها ومقاديرها فتخرج باذن الله طيبة شهية نافعة كما قال تعالى « وترى الأَرض هامدة فاذا أَنزلنا عليها الماءَ اهتزت وربت وأَنبتت من كل زوج بهيج » وكما قال تعالى وفي الأَرض قطع متجاورات وجنات من أَعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقي بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأُكل ان في ذلك لايات لقوم يعقلون ) .

والذين علموا صنع الله وعظيم قدرته في خلقه ونظروا نظرة تدبر إلى خلق الجبال وتلوينها إلى طرائق مختلفة وطبقات متنوعة الأَلوان والمنافع بين بيض وحمر وسود

غرابيب ، والذين ينظرون نظرة تدبر في خلق الناس وتكوينهم وفي الدواب وخلقها واختلاف الألوان في الناس والدواب هم الذين يصدق عليهم وصف العلماء بالله الذين يعرفونه بجلاله حق معرفته ويخشونه حق خشيته ، فعلماء طبقات الأرض والمعادن وعلماء الزراعة واستنبات الأرض وعلماء الاجتماع والأجناس ومعرفة أصناف الناس ومعرفة أطوار البشر في مختلف مراحل التاريخ ، ومدى تأثير البيئة والطبيعة على ألوانهم وحياتهم ، وعلماء الحيوان ومعرفة أنواعه في البر والبحر ، هؤلاء العلماء بأسرار الخلائق اذا قامت معرفتهم على دعائم الايمان بالله تعالى هم الذين يقصدهم القرآن الكريم بهذه المدحة المنيفة التي ساقها القرآن العظيم بصيغة الاختصاص تنبيها على مكانة الراسخين في معرفة أسرار آيات الله في الكون .

والقرآن الكريم أكثر جدا من الآيات الكونية ، لكنه ساقها في أساليب مختلفة ، وألوان شتى من التعبير ، يفصل مرة ، ويجمل أخرى ، ولكل مقام مقال ، يذكر الشيء ، مع قرينه وصاحبه ثم يفرده ليذكر حكمته

المستقلة بوجوده ودلالته ، ثم يعود إلى صاحبه فيذكره بحكمة استقلاله في القيام بحق الحجة النيرة والبرهان المستقيم يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد ، واخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة . للتنبيه على عموم الاستدلال بها لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس ، والحواس هي النوافذ التي يستطيع العقل أن يدرك بوساطتها - في أوائل خطوه نحو الحقائق الكونية - الروابط العنصرية والوشائج الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها ، فيحكم ويستنبط ويتهدى .

وقد يفرد القرآن الآيات السماوية بالذكر تنبيها لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عالم الأرض إلى آفاق السماء ، لينظروا إلى ما أودع الله فيها من آيات أجل وأعظم مما أودع في الأرض ، مع تيسير السبيل للعامة في النظر المتأمل الذي يحرك وجدانهم ويوقظ احساسهم لتتوثق عرى الايمان الفطري في قلوبهم .

والمقام هنا لا يتسع لاستيعاب الآيات الكونية التي

جاء بها القرآن الحكيم لكثرتها واختلاف مساقاتها وهي مبثوثة فيه ، تنساب في محيطه ، وتتخلل سوره ، فقلما تخلو سورة من سوره الكريمة من لون من ألوانها أو لفتة إلى ظاهرة من ظواهرها .

وحسبنا أن نشير على سبيل المثال والشاهد الى قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ».

وإلى قوله جل شأنه في سورة آل عمران « ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لايات لاولي الالباب » ففي الاية الاولى تفصيل بالتنصيص على آيات هي دلائل قاطعة على وجود الله وقدرته وحكمته ، وهي أيضا نعم من الله على عباده ينتفعون بها في معاشهم ، وذلك أنجع في البيان ، يقول القاضي عبد الجبار أحد الذين انتهت اليهم زعامة الفكر الاعتزالي في عصره في كتابه ( تنزيه القرآن عن المطاعن ) : ان سائر الأجسام

والأعراض وان كانت تدل على الصانع فهو تعالى خص هذه الأشياء الثمانية بالذكر في هذه الآية لأنها جامعة بين كونها دلائل وبين كونها نعما على أوفر حظ ونصيب ومتى كانت الدلائل كذلك كانت أنجع في القلوب وأشد تأثيرا في الخواطر اه .

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى « أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء » ففيه ارشاد إلى النظر التفصيلي بما اشتمل عليه من تعميم الجزئيات في قوله « وما خلق الله من شيء » وقد جاء هذا التعميم الكلي في قوله « ملكوت السموات والأرض » لبيان أن جملة الكون دليل قاهر على وجود الصانع الحكيم وأن كل ذرة من ذراته برهان مستقل في الدلالة عليه سبحانه والدليل الاجمالي يناسب العوام ومن كان على شاكلتهم في عدم الخوض في بحار الدلائل الكونية بالتفصيل ، والدلائل التفصيلية تناسب العلماء والحكماء الذي أحكم العلم تفكيرهم .

وعلى ضوء هذا ننظر في قوله تعالى من سورة يونس « ان ربكم الله الذي خلق السموات والأرض » لنجد إجماله

مفصلا بعض التفصيل المنبه على مواطن الهداية والاستدلال بذكر آيات النعم ، وبيان جهات المنافع في تسخيرها وذلك في قوله تعالى من السورة نفسها « وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون » وتأمل قوله « جعل الشمس ضياء » وقوله «والقمر نورا» ، وقوله « وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب » أفيفرد القرآن الحكيم وهو بصدد اقامة البرهان على عظمة ملك الله وجلال ملكوته الشمس بخصيصة الضياء ويخص القمر بوصف النور لغير حكمة كونية ترجع إلى طبيعة كل من الكوكبين ؟ وهل يتم الاستدلال بهما على الغرض الذي سيقا بوصفهما لاثباته دون معرفة العلة الكونية في هذه التفرقة ؟ واذا كان ذلك كذلك أفلا يكون من البداهة أن يطلب من القوامين على فهم القرآن أن يحيطوا علما بالظواهر العلمية الطبيعية التي تميز طبيعة النور عن طبيعة الضياء حتى يمكن فهم الاية على حقيقتها التي أنزلها الله في كتابه من أجلها ؟ ثم ألا يكون من البداهة ـ لاجل فهم الاية فهما مثمرا ـ أن

يطلب من القوامين على دراسة القرآن أن يحيطوا علما بقدر الطاقة البشرية ببعض الظواهر الطبيعية للشمس التي جعلها الله « ضياء » وببعض الظواهر الطبيعية للقمر الذي جعله الله « نورا » حتى يتبين للدارسين ولمن ينقلون اليهم معاني القرآن في آياته الكونية موقعُ وصف كل من الكوكبين – بوصفه الملائم لطبيعة موقعه ، ومن هنا تجيءُ نتيجة البرهان على صدق الدعوة لتخصيص كل كوكب بوصفه المنبعث من طبيعته التي خلقه الله عليها بحكمته واختياره .

ان بعض حكماء الاسلام وعلمائه لم يغفلوا هذا النظر عند دراستهم لآيات القرآن الكونية باعتبارها دلائل أقامها الله تعالى على وجوده وباهر قدرته وجلال كبريائه ، بل خاضوا بحارها ، بقدر ما وسعه علمهم ومعارفهم ، ووسائل الفكر والمعرفة في عصورهم يقول الامام الرازي في تفسيره : الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدِّر هو أن يقال « الأجسام في ذواتها متماثلة ، وفي ماهيتها متساوية ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه القاهر ، واختصاص

جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل المختار ، ثم ذهب الرازي يبين تساوي الأجسام وماهيتها في الحجمية والتحيز والجرمية على طريقته وطريقة عصره فقال : واذا ثبت أن الأجسام متماثلة في ذواتها متساوية في ماهيتها كانت متساوية في جميع لوازم الماهية ، فكل ما صح على بعضها وجب أن يصح على الباقي فلما صح لجرم الشمس اختصاصه بالضوء الباهر القاهر ، وجب أن يصح مثل هذا الضوء القاهر لجرم القمر وبالعكس ، واذا كان ذلك كذلك يجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص وايجاد موجد ، وتقدير مقدر ، وذلك هو المطلوب .

وتقريب كلام الامام الرازي وأسلوبه الاصطلاحي لاذهان عصرنا أن المادة في حقيقتها الاولى واحدة في ذاتها وخصائصها فاذا عرض لبعض جزيئاتها اختصاص بطبيعة خاصة ، تقبل بسببها بعض اللوازم والعوارض والأوصاف وتختص بها كاختصاص الشمس بالضوء واختصاص القمر بالنور كان ذلك بقوة قادر مختار ،

يعطي لخلقه ما يشاءُ من الخصائص الدالة على اطلاق مشيئته ، وهذا هو الغرض الأَصيل الذي سيقت الآية لاثباته وتحقيقه ، في البرهنة على قدرة الله ووراءَ ذلك معان كثيرة تتفجر من ينابيع الآية اذا فجرها العقل بالنظر في عناصر الموجودات وخصائصها لينتفع بها الانسان ، فأَنت ترى هذا الامام الحكيم لم يقف مع الآية عند أُسلوبها البلاغي المعجز ببراعة بيانها ولكنه أَدار البحث حول الآيات الكونية فيها ، وفي كيفية دلالتها على الغرض المقصود منها حسب معارف عصره وبيئته الفكرية .

ويروي الرازي أَن بعض محبي الحكمة كان يقرأُ في كتاب يتحدث عن هيئة الافلاك ونظامها ، على حكيم من علماء الفلك ، فدخل عليهما بعض الفقهاء فقال لهما ما الذي تقرآنه ؟ فقال الحكيم نفسر آية من كتاب الله وهي قوله « أَفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها» فأَنا أُفسر كيفية بنيانها قال الرازي ولقد صدق هذا الحكيم فان كل من كان أَكثر توغلا في بحار مخلوقات الله كان أَكثر علما بجلال الله تعالى .

ثم الا يكون من البداهة أن يطلب من القوامين على فهم القرآن فهما صحيحا أن يحيطوا علما بمنازل القمر وسيره في تلك المنازل وكيفية علم عدد السنين والحساب في معرفة المنازل وسير القمر فيها ؟ وهل للشمس سير ومنازل كسير القمر ومنازله ؟ وهل لها دخل في علم عدد السنين والحساب ؟ بلى كل ذلك يجب أن يعلم ولقد علم أسلافنا من ذلك ما بلغ اليه جهدهم ، وبهذا العلم استعانوا على تفسير هذه الآيات وأمثالها .

ثم كيف يستطيع القوامون على دراسة القرآن الحكيم فهم قوله تعالى في خاتمة الاية « ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الايات لقوم يعلمون » فهما يدعون به الناس ولا سيما الماديين وعلماء الطبيعة والفلك — إلى عقيدة الاسلام المؤسسة على وجود الصانع ، الخلاق العليم ، الواحد الاحد ، القادر الحكيم ، لو لم يكونوا على علم راسخ بخواص الافلاك ، وما أودع في أجرامها من القوى حتى يعرف الحق الذي خلقها الله به ، ليقع تفصيل الايات موقعه من العقول والقلوب ؟ يقول الرازي : قال حكماء الاسلام هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام

الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة باعتبارها تنتظم مصالح هذا العالم السفلي اذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم لكان خلقها عبثا وباطلا وغير مفيد ، وهذا ينافي أنها خلقت موصولة بالحق .

واذا كان أسلافنا من أعلام العلماء وحكماء الاسلام قد خاضوا بحار العلوم ، ولجج المعارف واقتحموا حصون الأفكار في أزمانهم ، ولم يتركوا منها مشرعا الا وردوه ، واتخذوا من كافة معارفهم وأفكارهم معينا لفهم كتاب الله فهما يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبين هدايته واقامة حجته ، فما موقفنا نحن من عصرنا ومعارفه ووسائله وأفكاره ومذاهبه ؟ هل نقف من آيات الله عند مبلغ ما وصل اليه أسلافنا في أعصرهم ، وهو نهاية إقدام العقول في بيئاتهم وأزمانهم ومجتمعهم ؟ أو نتقدم في شجاعة كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا ، ونخوض في بحار معارفه بعقولنا التي رباها القرآن الحكيم وحريته ،وبراعة اسلوبه ، ولطف مدخله ، ودقة تصويره ، وروائع تناوله لقضايا الحياة والكون ، مع عنايته بتثبيت قواعد الايمان في قلوب دارسيه ؟ من المؤمنين؟.

أيها السادة الاعلام :

ان الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم - وهو جانب مهم جدا - لأنه عماد الدلائل الالهية على وجود الله تعالى ، وتوحيده وباهر قدرته ، وواسع علمه ، ولطيف حكمته ، وسائر ما يجب له تعالى من الكمال في حاجة ماسة إلى التفسير والبيان بأسلوب علمي يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه ، ويكشف عما في الايات من أسرار وحقائق ناط الله بها كثيرا من منافعنا ومصالحنا في الدين والدنيا ، وقد أشار اليها القرآن في آياته ودلائله ، وبدأ العلم يكشف عنها الحجب ولكن على شرط أن نحذر ، فلا نخضع القرآن لنظريات لا تزال في مهب التجارب وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير ، فنقول أنها تفسير لآيات القرآن كما صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين ببريق العلم التجريبي ، وأن نحذر أيضا حذرا أشد وأعمق من الشطحات القرمطية الخبيثة التي تقصد إلى تحريف آيات الله عن مواضعها .

والقرآن كتاب الله الذي أحكمت آياته ثم فصلت

من لدن حكيم خبير ، أَنزله الله هدى للناس ورحمة فهو لا يخضع لاسلوب حديث ولا أُسلوب قديم . وانما تفسره الحقائق والبراهين التي يحققها البحث العلمي المستند إلى الأُصول الاسلامية ، وفهم العقول المستقيمة .

والنظر في تفسير الايات الكونية يجب أَن يقصد أَولا إلى تبيين هداية القرآن تبيينا علميا ، لا على أَساس أَن نجعل النظريات العلمية التجريبية هي تفسير الايات القرآنية ومعانيها التي قصدها القرآن الكريم ، ولكن على أَساس أَن القرآن الكريم لا يصادم علما ثبت بالبرهان القطعي ثبوتا لا يحتمل الأَرتياب والشكوك .

والراسخون في العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية في حقائق الكون وظواهر الطبيعة ايمانا بجلال الله وعظمة الخلاق العليم ، لأَنهم قرؤا في لوح الوجود قول خالق الوجود « تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير » وقوله « أَو لم يتفكروا في أَنفسهم ما خلق الله السموات والأَرض وما بينهما الا بالحق وأَجل مسمى » وقوله « الذي أَحسن كل شيء خَلَقه وبدأَ خلق الانسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » واذا

احتمل خلق الانسان من طين الجدل بين الدروينيين والنوعيين فإن قضية جعل الانسال الانسانية من سلالة من ماء مهين لا يختلف فيها ملحد مع مؤمن ولا درويني مع آدمي ، لأنها أكبر وأدخل في الصدق الواقعي من أضخم قضاياهم التجريبية التي يؤمنون بها بل هي أصدق من نظر التجربة المتكررة التي لم يشذ عنها المرةُ الواحدة في ملايين الملايين من السنين من أي قضية تدخل تحت البداهة المسلمة عندهم .

# الدستور الموجّه

* إيقاظ العقول للتحرر من العبودية لغير الله
* سنّة التدافع بين البشر في آيتين
* نقد لتفسير الطبري والقرطبي



والقرآن الحكيم دستور الاسلام ـ وهو الكتاب الذي نزل على النبي الامي يوجه العقل الانساني في كل ما منحه الله من قوة وجبروت إلى النظر في ملكوت الله ليكشف حقائق الكون ويرفع الحجب عن أسراره ويفسر آياته في الأنفس والافاق التي وعد الله تعالى بكشفها للعقل الانساني في قوله تعالى ( سنريهم آياتنا في الافاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ) .

فالقرآن دستور موجِّه يرسم للانسانية طرائق حياتها ويربي أفرادها وجماعاتها وهو قانون يشرح لها أحكام الوقائع والأحداث لتحقيق كافة مصالحها التي تقع بين طرفي العدل والرحمة ، وكتاب مؤسس لعقيدتها ونظام تعبدها وقائدٌ يسوسها بتعاليمه ، أنزله الله للهداية واقامة

دعائم العدل والرحمة والمحبة فاذا تحدث عن آيات الله في الآفاق والأنفس فهو لا يقصد إلى تحقيق نظريات علمية قائمة على تجارب التحليل المادي أو الاختبار التجريبي أو قياس المسافات ومعرفة أقدار الاجرام عرضا وطولا وسمكا أو تأليف العناصر وتحديد ما ينشأ عن امتزاجها وتركيبها من مواد جديدة أو حساب درجة سير الكواكب ومقادير الفضاء بينها وما في هذا الفضاء من مخلوقات إلى نحو ذلك من أبحاث علمية يقوم بها العلماء في معاملهم ومدارسهم بوسائلهم الخاصة مما لا يمكن القطع بصحة جميع قضاياها ونظرياتها ، ولا يمكن التشكيك في آثارها المشهودة .

وانما يقصد القرآن من ذكر آيات الله في الكون وأسرار الوجود إلى ايقاظ العقول لتنهض بواجبها في كشف الحقائق الكونية لتصل أولا وقبل كل شيء إلى معرفة الخالق العظيم وإلى معرفة عظمة ملكه وسعة سلطانه ، وصدق أنبيائه ورسله ولتحرر من التعبد للمخلوقين لتفرد الخالق بالتقديس وتستخدم هذه الكشوف التي تصل اليها في انهاض الانسانية ونفعها وترقيتها في مدارج الكمال

البشري حتى تحقق رسالتها في الحياة .

ومن هنا نرى أنه لا ينبغي أَبدا أَن يعرض القرآن في تفسير آياته الكريمة للهزات التجريبية فتحمل على نظريات العلم الحديث وكشوفه على أَنها المعنى المراد من الاية فيقال أَن النظرية الفلانية أَو اختراع كذا أَو كشف كذا مذكور في القرآن وان القرآن أَراده عينه في آية من أَياته كما يفعل بعض المتحمسين في حسن نية وقصد بريء ، أَو سوء نية وقصد خبيث .

والذي يجب أَن يقال أَن القرآن الحكيم في جميع ما تحدث عنه من عقيدة وتشريع وأَدب وأَخلاق وسياسة واجتماع وعرض لجمال الكون وآياته الباهرة لا يمكن على مدى الدهور والازمان مهما اتسعت دائرة العلم والاختراع واستبحرت الحضارات المستقيمة أَن تصادم آياتُه الكريمة علما مقطوعا بحقيقته ولا كشفا عرفت مباديه ونهاياته وسائر ظروفه التي أَحاطت بوجود ضرورة أَن القرآن دستور شريعة عامة خالدة خاتمة الشرائع السماوية فهو حق من عند الله والحق لا يصادم الحق فان جاءت هذه المصادمة ـ ولئن تجيءَ ـ عمدنا إلى قانون التأْويل العربي الصحيح .

يقول الامام الفيلسوف ابن رشد ( واذا كانت هذه الشريعة الاسلامية حقا وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق فاننا معشر المسلمين نعلم على طريق القطع أن النظر البرهاني لا يؤدي إلى مخالفة ما ورد به الشرع فان الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له ونحن نقطع قطعا أن كل ما أدى اليه البرهان القطعي وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي وهذه القضية لا يشك فيها مسلم ) .

والعقل في نظر علماء الاسلام هو صاحب السلطان الأول في الكشف عن حقيقة آيات الله في الأنفس والافاق في حدود طاقته ـ والقرآن الكريم موجّه للعقل ومرشد ، يأخذ بيده إلى أول الطريق ، ويدفعه دفعا إلى النظر والحث ، وعلى هذا السنن سلك علماء الاسلام في حياتهم العلمية البارعة الرائعة العامرة ، يوم أن كانت دولة الاسلام حرة موحدة قوية تملي على الحياة ارادتها ، ولو أن دولة الاسلام امتد سلطانها الموحد ، وقوتُها المسيطرة وحريتُها المرهوبة ، ولم تغرقها الأهواء والشهوات الرخيصة ولم تضعفها الفرقة المذلة ولم يقبض على زمامها صنائع

الشهوات حتى أسلموها للضعف ففرق شملها ، وأوهن قوتها ، وعطل تفكيرها ، اذا لتابعت طريقها في النهضة العلمية التي بدأتها في ظل القرآن ، ولكانت هي صاحبة الكشوف والاختراعات ، ونظريات العلم ، والاتصال بالشموس والأقمار لأن علماء الاسلام لم يقفوا دون علم من العلوم الا اقتحموا لجته ، ولا فن من فنون المعرفة الا خاضوا بحره بشغف بالغ وحب للعلم والمعرفة ، وتقديس للعقل بأسلوب واقعي يجمع بين نظر العقل والمشاهدة ، في حدود ما كان لديهم من وسائل وآلات ، وقد اعترف بهذه الحقيقة المنصفون من غير المسلمين ، يقول صاحب كتاب ( النزاع بين العلم والدين ) ـ وهو استاذ من اساتذة الجامعات الأميركية ـ « ان علماء المسلمين شرعوا يطلبون العلم فلم يدعوا فنا من فنونه ولا فرعا من فروعه الا حذقوه وصاروا أئمته ، وكان تفوقهم في العلوم ناشئا من الأسلوب الذي توخوه في مباحثهم ، فانهم تحققوا ان الاسلوب النظري لا يؤدي إلى التقدم وان الأمل في وجدان الحقيقة يجب أن يكون معقودا بمشاهدة الحوادث ذاتها ومن هنا كان شعارهم في أبحاثهم الأسلوب التجريبي

والدستور العلمي وهذا الأُسلوب هو الذي أداهم لاكتشاف علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة » .

أما الايات التي تتحدث عن بعض الظواهر الاجتماعية في حياة المجتمع البشري فهي أيضا كثيرة جدا ، وكان حظها من التفسير أفضل في الكم من حظ الايات الكونية ، على معنى أن هذه الايات الاجتماعية ملأت حيزا من دواوين التفسير أعظم وأضخم مما ملأته الايات الكونية .

وقد كانت هذه الكثرة والضخامة في الحيز الذي استولت عليه الايات الاجتماعية في التفاسير مما وجه هذه الايات وجهة بعيدة عن هداية القرآن .

ولا نستطيع أن نعدد الشواهد والأمثلة في نماذجها من أقوال المفسرين في هذه الايات لان هذا يطول ولا يستوعب ولكنا نسوق شاهدا اجتماعيا يتصل بطبيعة الحياة البشرية بصفة عامة ، يكفي للتدليل على أن الدراسة القرآنية التي بين أيدي المسلمين اليوم ، ولا سيما الايات الاجتماعية بعد الايات الكونية في حاجة شديدة إلى نظرات القوّامين على هذه الدراسة في معاهد العلم وجامعات الاسلام .

عرض القرآن الكريم لسنة اجتماعية من سنن المجتمع البشري ، هي سنة التدافع بين البشر أفرادا وجماعات ، أمما وشعوبا ، دولا وحكومات في آيتين من آياته البينات يوشك أن يكون لفظ النص فيهما واحدا أبان فيهما أن من سنن الله الاجتماعية أن يدفع بأهل الحق والخير والاصلاح أهل الباطل والشر والفساد .

الاية الاولى – في سورة الحج ، وهي أولى في نظم البحث ، لا في ترتيب القرآن لما فيها من التفصيل يقول الله تعالى ( ولولا دفع الله الناسَ بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز الذين ان مكناهم في الأرض اقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ) .

فالله يذكر في هذا النص القرآني أن اذنه للمظلومين في قتال الظالمين سنة من سننه الكونية التي أقام عليها دعائم العمران والاستقرار في الحياة . فيدفع أهل الشر والفساد بأهل الخير والصلاح وسنعرض رأيين في تفسير الآيتين لأمامين ، أحدهما من أئمة التفسير في عصور

الخلف وهو الامام القرطبي الذي تداول الناس تَفسيره وجعلوه مرجعا لهم . والثاني إمام المفسرين قاطبة وأولهم في تدوين التفسير تدوينا مستقرا اتخذه الناس إمامهم في التفسير بالمأثور إلى جانب ماله من آراء دقيقة موفقة ـ يجنح فيها إلى الاجتهاد ذلكم هو الامام أبو جعفر الطبري . يقول القرطبي في تفسير قوله تعالى:( ولو لا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد ) أي لولا ما شرعه الله تعالى للأنبياء والمؤمنين من قتال الأعداءِ لاستولى أهل الشرك وعطلوا ما يبنيه أهل الديانات من مواضع العبادات ، ولكنه دفع بأن أوجب القتال ليتفرغ أهل الدين للعبادة ، فالجهاد أمر متقدم في الامم وبه صلحت الشرائع .

هذا المعنى المحكم هو عينه المعنى الذي جاءت به الاية الثانية في سورة البقرة بلفظ النص سواء ، قال الله تعالى ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ) وكما جاءت آية الحج عقيب اذن الله تعالى للمؤمنين في قتال الكفرة الظالمين ، فكانت مؤكدة لشرعية القتال لدفع الظلم وتأمين الحياة في أقدس مظاهرها جاءت آية

البقرة عقيب قصة دفع جالوت وجنوده من نماذج الظلم والطغيان ، بجند طالوت من أهل الخير والايمان ، وهذا كالصريح في أن المراد بدفع الله الناس بعضهم ببعض تسليط أهل الصلاح والبر على أهل الفساد والفجور لينتصفوا منهم ويقيموا عليهم ميزان الحق والعدل ، ويأمن أهل الأديان على قداسة حرياتهم .

بيد أن آية البقرة أجْملت نتيجة عدم دفع الله الناس بعضهم ببعض باستسلام أهل الخير والصلاح لأهل الشر والفساد ، فجعلتها فساد الأرض ، ومعناه شيوع الهرج والمرج واثارة الفتن واستطالة الظالمين ، وذيوع الكفر والالحاد واستحواذ القلق والاضطراب والفزع على قلوب الضعفاء المظلومين ، فلا يستطيع متعبد لله أن يتعبد ولا يأمن مؤمن أن يظهر ايمانه ولا يتمكن مسلوب الحق مهدر الكرامة أن يجأر بشكواه ، واذا اجترأ فجأر بها فلن يجد سميعا ، ومن ثم تتلف أعصاب الناس وتكثر فيهم الأمراض الفتاكة التي يولدها الكبت والخوف ويفسد المجتمع الانساني فسادا لا صلاح معه ، وهذا المعنى هو الذي ذكرته آية الحج في نتيجتها بعنوان تهديم وتخريب

مواضع العبادات عند سائر الامم كانموذج لأبشع أنواع الفساد التي تترتب على كف أيدي المؤمنين عن الطغاة الظالمين ، واستكانتهم لهم واستسلامهم لغوائلهم .

ومن العجيب ما وقع في تفسير آية المدافعة ـ وهذا نسقها وجوها ـ لكثير من جهابذة المفسرين وفي طليعتهم شيخهم الامام أبو جعفر الطبري :( من أن المعنى أن الله تعالى يدفع عن بعض الناس وهم الكفرة والمنافقون وأهل الفجور ، تعجيل العقوبة ، ببعض آخر ،وهم أهل الايمان واليقين والصلاح ، وعلى هذا يكون المعنى والتركيب في أسلوب الاية ( ولولا دفع الله عن بعض الناس العذاب والعقوبات بسبب وجود أهل الخير والديانة وبركتهم وفضلهم عند الله تعالى لفسدت الأرض ، أي لأهلكهم الله بذنوبهم ) .

قال أبو جعفر الطبري في تفسير آية البقرة مع اختصار عبارته بما لا يخل بمراده يعني تعالى ذكره ، ولولا أن الله يدفع ببعض الناس وهم أهل الطاعة له والايمان به بعضا وهم أهل المعصية لله والشرك به لفسدت الأرض ، يعني لهلك أهلها بعقوبة الله اياهم ففسدت الأرض بذلك ،

ولكن الله ذو منّ على خلقه وتطول عليهم بدفعه بالبر من خلقه عن الفاجر ، وبالمطيع عن العاصي منهم ، وبالمؤمن عن الكافر ) ... ثم قال أبو جعفر رحمه الله تعالى ( وهذه الاية إعلام من الله تعالى ذكره أهلَ النفاق الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم المتخلفين عن مشاهده والجهاد معه للشك الذي في نفوسهم ومرض قلوبهم ، والمشركين وأهل الكفر منهم وانما يدفع عنهم معاجلتهم العقوبة على كفرهم ونفاقهم بايمان المؤمنين به وبرسله الذين هم أهل البصائر والجد في أمر الله ، وذوو اليقين بانجاز الله اياهم وعده على جهاد أعداء رسوله من النصر في العاجل والفوز بجنانه في الاجل ) .

ولو أن أبا جعفر رحمه الله وقف بتفسير الاية عند هذه العبارة لكان يمكن أن يكون فيها مجال للتأويل يردها إلى ما ذكرنا من تفسير الاية في أسلوبها التركيبي وجوها المحيط بها سياقا وسباقا ولكنه ـ رحمه الله ـ أعقب ذلك بنقول عن بعض ائمة السلف من المفسرين كانت صريحة في قصده المعنى البعيد عن أسلوب الاية ثم راح أبو جعفر يؤيد تلك النقول بأحاديث مرفوعة إلى النبي صلى

الله عليه وسلم ، لم يظهر لنا في سياقته لها انها وردت لتفسير الاية ، وانما وردت لتقرر قضية من قضايا الايمان بالله وارتباطها بسعة منن الله على عباده ولتفيد أن رحمة الله بالناس جعلت من سنته في خلقه أن المجتمع الانساني ما دامت معالم الخير والصلاح قائمةً بين جنباته فان الله تعالى لا يعجل على أهل الشر والفساد بعقوبة الاستئصال ، بل يصرف البلاء عنهم بالصالحين من عباده ، وهذه - بلا ريب - قضية أخرى ومعنى آخر غير معنى جهاد الظالمين وقتالهم لدفع شرهم ،وهو الذي سيقت له الآية على ما يفهم من ربطها بقصة طالوت وجالوت .

قال أبو جعفر رحمه الله وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ، حدثني محمد بن عمرو ، قال حدثنا أبو عاصم ، عن عيسى ، عن ابن أبي نجيح ، عن مجاهد في قول الله ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ) يقول ولولا دفع الله بالبر عن الفاجر ، ودفعه ببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لفسدت الأرض بهلاك أهلها .

وروى أبو جعفر رحمه الله عن علي كرم الله وجهه

ورضي عنه أنه قال « لولا بقية من المسلمين فيكم لهلكتم »
ثم روى أيضا عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله ليدفع بالمؤمن
الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاءَ » ثم قرأ
ابن عمر « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت
الأرض » وروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ان الله ليصلح
بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده ، وأهل ديورته ،
ودويرات حوله ، ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم ».

وحديثا عليّ وجابر رضي الله عنهما ليس فيهما تعرض
للاية على اعتبار أنهما مفسران لها ، وحديث ابن عمر
من بابهما غير أن الرواية تقول أن ابن عمر رضي الله
عنهما قرأ الاية ، عقب الحديث كدليل على تحقيق
معنى الحديث بافادة أن القرآن الكريم جاءَ بهذا المعنى ،
وهذا يقتضي أن ابن عمر يرى من قبيل الاستنباط
اجتهادا منه لا سماعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن الاية متضمنة معنى الحديث .

فما الذي الجأ هذا الامام الجليل إلى ذهابه لذلك

الرأي الذي فسر به آية البقرة واقتصر عليه ، ولم يذكر غيره كما صنع في آية الحج ، وهذا الرأْي أَبعد الاراءَ المحتملة في تأْويل الاية ، حسبما يدل عليه أُسلوبها التركيبي وهو أَن الله يدفع بعض الناس ببعض ، ولم تقل الاية ان الله يدفع عن بعض الناس ببعض ؟ هذا عجيب ، والكمال المطلق لله تعالى شأْنه .

وذهب أَبو عبد الله القرطبي رحمه الله في آية البقرة مذهب الطبري فيها ، وخالف القرطبي فيها رأْي نفسه في آية الحج ، وهي اختها رضيعتها وأَغرق القرطبي في تشييد هذا الرأْي بذكر أَحاديث ( الابدال ) وأَنهم هم المدفوع بهم الفساد ، فقال :

المسأَلة الثانية – واختلف العلماءُ في الناس المدفوع بهم الفساد من هم ؟ فقيل هم ( الابدال ) فهم أَربعون رجلا كلما مات رجل بدل الله منه آخر ، فاذا كان عند القيامة ماتوا كلهم ، اثنان وعشرون منهم بالشام وثمانية عشر بالعراق ، ورَوى عن علي رضي الله عنه أَنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان الابدال يكونون بالشام ، وهم أَربعون رجلا ، كلما مات منهم

رجل أبدل الله مكانه رجلا ، يسقي بهم الغيث ، وينصر بهم على الأعداء ، ويصرف بهم عن أهل الأرض البلاء . ذكره الترمذي الحكيم في ( نوادر الاصول ) وخرّج القرطبي أيضا عن أبي الدرداء قال ان الأنبياء كانوا أوتاد الأرض ، فلما انقطعت النبوة أبدل الله مكانهم قوما من أمة محمد صلى الله عليه وسلم يقال لهم الابدال ، لم يَفْضلوا الناس بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن بحسن الخلق ، وصدق الورع ، وحسن النية ، وسلامة القلوب لجميع المسلمين والنصيحة لهم ابتغاء مرضاة الله بصبر وحلم ولب وتواضع في غير مذلة ، فهم خلفاءُ الأنبياء قوم اصطفاهم الله لنفسه ، واستخلصهم بعلمه لنفسه ، وهم أربعون صديقا ، منهم ثلاثون على مثل يقين ابراهيم خليل الرحمن ، يدفع الله بهم المكاره عن أهل الأرض والبلايا عن الناس ، وبهم يمطرون ويرزقون ، لا يموت الرجل منهم حتى يكون الله قد أنشأ من يخلفه .

ثم قال القرطبي بعد هذا وقال ابن عباس ( ولولا دفع الله العدو بجنود المسلمين لغلب المشركون فقتلوا المؤمنين وخربوا البلاد والمساجد ) أفما كان في هذا التفسير ــ وهو

من جواهر الحبر غنية عن حديث الابدال الذي أقحم اقحاماً على أسلوب الآية وسياقها ؟ إن هذا المعنى هو الرأي والمعنى، لا رأي ولا معنى غيره ، وهو الذي ذكره القرطبي نفسه في آية الحج ، فليته رحمه الله اعتصم بأهداب حبر الامة .

واقتصر على هذا المعنى الذي هو درة من درر غوصه في بحار المعاني القرآنية وهي خصيصته بالدعوة المستجابة النبوية ، ولكن القرطبي رحمه الله بعد سوقه لهذه الكلمة الحكيمة والرأي السديد في غمرة أحاديث الابدال ، عاد من حيث بدأ فقال وحكى مكي أن أكثر المفسرين على أن المعنى لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي ، وبمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم ، قال وكذا ذكره النحاس والثعلبي أيضا وقال سائر المفسرين ولولا دفع الله بالمؤمنين الأبرار عن الفجار لفسدت الأرض ، أي أهلكت ، وذكر حديثا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال ان الله يدفع العذاب بمن يصلي من أمتي عمن لا يصلي . وبمن يزكي عمن لا يزكي ، وبمن يصوم عمن لا يصوم ، وبمن يحج عمن لا يحج وبمن يجاهد عمن لا يجاهد ، ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما أنظرهم الله طرفة

عين ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم ( ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ) .

ثم ذكر حديث جابر وحديث ابن عمر اللذين ذكرهما الطبري وأشرنا اليهما في سياقة كلامه ، بيد أن القرطبي رحمه الله ذكر أن بعض العلماء قال هذا الدفع بما شرع الله على ألسنة الرسل من الشرائع ولولا ذلك لتسالب الناس وتناهبوا وهلكوا ، قال ان هذا قول حسن ، فانه عموم في الكف والدفع وغير ذلك ، ثم وكأنه نسي فقال في قوله تعالى ( ولكن الله ذو فضل على العالمين ) الذي ختمت به اية الدفع في سورة البقرة بين الله سبحانه أن دفعه بالمؤمنين شر الكافرين فضلا منه ونعمة . وهذا هو الرأي ؟؟ اذن ففيم كان حديث الابدال ؟ وما صلته بالآية ؟ وفيم كان النقل عن مكي والنحاس والثعلبي ودعوى أن ذلك هو رأي أكثر المفسرين ؟ وحديث الأبدال يرويه ويذكره في مؤلفاتهم الصوفية ، ولا يسلمه لهم جهابذة المحدثين . فهو مع بعده عن أسلوب الآية وسياقها لا ينبغي أن يعتمد عليه في تفسيرها .

هذه السبيل في تفسير القرآن الحكيم هي ديدن

كثرة التفاسير المتداولة في أيدي أهل العلم ، تذكر الرأي السديد الموفق ، ثم تغيبه في كِسَف من سحب الاراء والروايات التي تستجلبها أدنى المناسبات اللفظية أو المعنوية ، فلا يكاد يكون الرأي السديد بينها الا رأيا شاحبا هزيلا ، وهو - في الواقع - هو الرأي الذي يدل عليه الأُسلوب والتعبير ، والذي يجب الا يذكر تفسيراً للاية سواه .

ولو نقلنا ما قاله أصحاب التفاسير المشهورة في تفسير آية المدافعة في موْضعيها من القرآن الكريم لرأينا كثرتهم يمشون في هذا الطريق المشتبه المعالم ، فمرة على الجادة وأخرى في متاهة الروايات والانقال ، دون تحقيق صحة السند وسلامة المعنى ، ونكتفي بهذا فهو كاف في تحقيق القصود ومن أراد المزيد فليرجع اليها .

# ضرورة غربلة كتب التفسير

- المفسّرون القدامى بذلوا جهوداً مشكورة .
- الواجب الكبير الملقى على عاتقنا .
- مجمع قرآني
- منهجان للتفسير



ألا وحرمة الحق لو أن علماءَ الاسلام وجهوا عنايتهم العظمى في هذا العصر الطُلَعة إلى غربلة كتب التفسير وأخرجوا منهـا للناس كتابا واحدا في ربع أو خمس أو عشر حجم أحدها ، ثم قاموا بطبعه وترجمته وتوزيعه في أرجاء العالم بثمن وبغير ثمن ، لأغناهم هذا وأغنى العالم الاسلامي عن التفكير الكسيح هنا وهناك ، ولأغناهم وأغنى العالم الاسلامي عن هذا الغثاء الذي تقذفه المطابع كل يوم في وجه الناس على أنه تفسير للقرآن ، ولأغناهم وأغنى العالم الاسلامي عن هذه التراحم المحرفة للقرآن ولكان فيه أعظم دعاية وتبليغ للاسلام .

فهل ينهض العلماءُ بعبء رسالتهم وتتاح لهم فرصة أدائها بتمكينهم من وسائل القيام بواجبهم نحو الاسلام

والمسلمين ؟ أو أن القافلة ستمضي وهم عن واجبهم مشغولون ؟ لعل وعسى ، وانما الأمل في فضل الله العظيم .

وانما سقنا هذه الشواهد لأننا قصدنا التنبيه إلى مظهر شائع في كتب التفسير ، وهي العمدة في فهم القرآن ، والقرآن دستور الاسلام الذي لا دستور له سواه ، وقانون المسلمين الذي لا قانون لهم سواه ، وكتاب الانسانية المدعوة إلى الايمان به وفهمه ، والأخذ بتشريعاته ، والتمسك بآدابه .

وتلك الكتب التي فسرت القرآن في عصور مختلفة المناهج في الحياة الاجتماعية والسياسية والمعارف الانسانية قد قام أصحابها بواجبهم نحو القرآن ونحو الامة في عصورهم بأكثر مما في طاقتهم ، وبذلوا من الجهد والفضل والتفكير فوق ما يستطيعه البشر ، لولا تأييد الله لهم بما آتاهم من الصبر والمصابرة والجلد على سهر الليالي وظمأ الهواجر ، فجزاهم الله أحسن ما جزى العلماء المجاهدين في خدمة الاسلام والمسلمين ، فهم بين مأجور باجرين مصيب في اجتهاده ، ومأجور بأجر مخطئ في اجتهاده .

أما نحن – وهذا عصرنا المتنكر للدين والقيم الروحية والخلقية المليء بالشبه الالحادية المادية والعقلية ، المفعم بمعارف لا عهد لاسلافنا بكثير منها ولا بطرائقها ووسائلها – فاننا مطالبون أشد المطالبة بالقيام بعمل جاد لخدمة القرآن واتاحة فهمه للناس ، بروح تقدر الواقع ، وتقف معه ، وتواجهه ، ولا تتهرب منه ، وتفهمه وتفهم طرائق علاجه ، بدراسة الاراء والمذاهب الذائعة دراسة تعتمد على ضوء الهَدْي القرآني ، ودحض الزائف منها بالحجة النيرة ، والترحيب بكل ما يظهر أنه حق وخير وهدى ورحمة للناس والحياة ، وهذا – بلا شك – عمل شاق ، تنوء به كواهل الأشداء ، لأنه عمل يطالبنا بأن نغير الكثير من مناهج تعليمنا وتربيتنا وسلوكنا وأفكارنا ومعارفنا ومظاهر حياتنا .

وهيهات أن تتحقق الطفرة ، ولكن علينا أن نبدأ ، وأن نمهد ، وأن نفتح الأبواب والنوافذ ، لينشر الضوءُ أردية أشعته على الأفكار والعقول والقلوب والأرواح ، وتجدد النسائمُ النقيةُ أجواءَ الحياة من الهواء الغليظ الحبيس .

ان الامال والنظريات اذا لم يحاول العاملون في توجيه الدراسات القرآنية تحويلها إلى حقائق واقعية ، فلن يكون لها أثرها الايجابي في هذه الدراسات .

ولأجل أن نكون في آمالنا وما عرضناه من نظريات واقعيين ، نرى - وقد أطلنا الحديث - والبحثُ لم يبلغ مداه - أن نكف من عنان القلم لنتقدم إلى جمهرة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، وإلى علمائهم غامة باقتراح ورغبة نتيجة دراسة مستفيضة أودعناها في بعض مؤلفاتنا القرآنية .

ذلك أن النهوض بعبء تفسير القرآن الكريم على أساس المنهج الذي عرضناه في إجمال غير مجحف بالبيان ، لا يمكن أن يقوم به فرد مهما كان شأنه في مقام العلم والمعرفة ، أو هيئة تلتزم في حياتها الفكرية منهجا خاصا ، وانما تقوم به طائفة من العلماء المتخصصين في فهم الحقائق الاسلامية الأصيلة فهما عميقا وطائفة من العلماء المتخصصين في جميع العلوم والمعارف الانسانية التي عرض لها هذا الكتاب الكريم ، لتعين على تجلية تلك الحقائق

في أسلوب علمي يبين للناس ما نزل اليهم من الهداية الالهية .

وهذا أمر يتطلب تحقيقه انشاء مجمع قرآني دائم يستهدف تفسير القرآن تفسيرا ينهض بالمسلمين نهضة تضعهم في مكانهم من حياة الفكر الانساني طليعة للمشاركة في بناء الحضارة العالمية على دعائم الايمان والعدل والاخاء .

ويستطيع هذا المجمع - اذا قدر له الوجود - أن يقوم بوضع منهجين لتفسير القرآن العظيم .

المنهج الأول - يقصد إلى وضع تفسير دراسي يعمد إلى بيان الهداية القرآنية بيان معنى الآيات بيانا يعتمد على دلالة الألفاظ في أسلوبها محاطة بسياج محكم من الاصول التي نزل بها هذا القرآن المجيد .

وهذا التفسير هو الذي يجب أن يدرس في معاهد الامم الاسلامية ، ومدارسها وجامعاتها توحيدا لمنهج الدراسة القرآنية التي تجمع المسلمين في أقطار الأرض على ثقافة موحدة الأسلوب واللغة والتفكير ، يؤمنون بها ايمانا ينبع

من ايمانهم بخلود القرآن ما بقي الاذان بالصلوات على منابر الإسلام .

والمنهج الثاني يقصد إلى وضع تفسير للقرآن تبين فيه الهداية الالهية التي أودعها الله هذا الكتاب الحكيم على أوسع ما تستطيع الطاقة البشرية أن تصل اليه من بحوث علمية كونية أو اجتماعية تدخل في نطاق الاصول الاسلامية التي جاء بها القرآن ، لا على أن هذه النظريات العلمية هي التفسيرُ لآيات القرآن وانما تكون هذه النظريات مساعدا في بيان المعنى الذي يهدي اليه أسلوب الآيات ويكون هذا التفسير بمثابة دائرة معارف قرآنية تسد لدى العالم الاسلامي فراغا يشعر به كل مسلم .

ويمكن أن يقوم هذا المجمع القرآني إلى جانب قيامه بهذين المنهجين من التفسير باخراج كتاب يستقصي ما يمكن استقصاؤه من الاسرائيليات والأغاليط الفكرية التي حمِّلها القرآن الكريم للتنبيه عليها حتى لا يقع في حبائلها المسلمون .

والله تعالى يقضي ما شاء انه بعباده خبير بصير وهو ولي التوفيق . والسلام عليكم ورحمة الله ،

محمد الصادق عرجون

عميد كلية اصول الدين بجامعة الأزهر سابقا



# المحتوى